

**وحدة: مصادر تاريخ الغرب الإسلامي** 

**إعداد الأستاذ: كمال خلفات**

**مستوى: السنة الأولى ماستر-تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي**

**الموسم الجامعي: 2023/2024**

**المحاضرة الرابعة: كتب المناقب**

**ماهية المخطوطات المناقبية :**

**لغـة:** المناقب بالكسر وتعني ذكر الكرام بالكرم.

**أما مفهومها العلمي:** فهي الكتابات النثرية التي حكت كرم الفعل لدى شريحة الزهاد والصوفية والصلحاء والأولياء والمرابطين على هيئة سير ضبطت حياتهم اليومية وسلاسل أنسابهم وممارساتهم الدينية والاجتماعية وصورت الشخصية الدينية داخل النص كشريحة كارزماتية تنتصر على مختلف القوة التي تمثل الخوف والشر، وهي في الغالب تتكون من اللصوص والأعراب والقراصنة والسلطة والطبيعة.

كما ليست في معظمها نصوص جاهزة للاستهلاك التاريخـي والأثـري والسوسيولوجي والأنثرويولوجي لأنها تختفي وراء حجب الكرامة وستار الفتاوى وسياج التراجم والسرد والرحلات فهي بحق ذلك الأدب الخجول على حد تعبير محمد القبلي، وذلك الخليط من الواقع والمتخيل والتاريخ والأسطورة حسب مفهوم عبد اللطيف الشاذلي، والذي يتطلب الاستفادة منه استعمال العلوم المختلفة للكشف عن مكنونه الفكري النابع من رحم مؤسسة الزاوية التي توظفه بدورها كأداة فعالة " لضمان استمراريتها عبر صيانة متجددة لرموز المشروعية الموروثة ".

ولتكون هذه الكتابات المناقبية جنسا نقيا يجب أن يتوفر في ضمن خصائصها الوظيفية والبنيوية الشروط التاليـة:

أولا: الغرض الصوفي المتحدث عنه.

ثانيا: استعمال المصطلح الصوفي والقدرة على توظيفه.

ثالثا: الهدف من هذه الكتابات المناقبية.

رابعا: أن تكون هذه الشروط غير قابلة للتجزئة، لأن في تجزئتها خروجا عن جنسها.

فمثلا إذا تم استخدام الأغراض الصوفية ولم يستعمل المصطلح الصوفي، فالكتابة ليست بصوفية فهي كالكتابة الفلسفية طالما أن هناك مواضع مشتركة بينهما (التصوف والفلسفة) كالبحث في الحواس وما ألحق بها وفي النفس والقلب والروح وفي البحوث البرهانية لإثبات وجود الله .

وكذلك إذا تم تناول الأغراض الصوفية واستعمل المصطلح الصوفي ولم يحدد ما يهدف إليه التصوف فكتابته ليست صوفية وهي مثل مؤلفات الحب، وكذلك إذا استعمل المصطلح الصوفي في غير الأغراض الصوفية المتعارف عليها فهي كالكتابة الإصلاحية .

أما الموضوعات العامة الواردة دوما في النص المناقبي المغربي فهي خاصة بالحياة الدنيا والآخرة فبالنسبة لموضوعات الحياة الدنيا فهي تدور حول الخوف و التعصب وذكر لتراجم الفقهاء والعلماء، الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية و السفريات و إتباع الشيخ، وإطعام الطعام، وإشفاء المرضى، وإصلاح ذات البين بالإضافة إلى الكرامات التي تخص ذات الولي وتشكل حيزا معتبرا وموضوعاتها: الطيران في الهواء والتحكم في الكائنات واكتساب العلم اللدني وإحضار الثمار في غير موسمها وركوب قوس قزح ومعاقبـة اللصوص والسلطة والمستهزئين بالولاية. أما موضوعات الآخرة فقد انصرفت إلى ما هو روحي خلوي مثل ملاقاة الخضر والإطلاع على الغيب وكرامات ما بعد المـوت.

**نشأة وتطور الكتابة المناقبية بالمغرب الإسلامي :**

إن حركة التأليف في الكتابة المناقبية بالمغرب الإسلامي، لم تكن متأخرة عن نظيرتها في المشرق. على رغم المدة التي استغرقها الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والذي استمر سبعين عاما أو ما ينيف عن ذلك، ولا نبالغ إذا اعتبرنا أن حركة التأليف في تاريخ المغرب الإسلامي قد بدأت بالكتابة المناقبية . دليلنا على ذلك نصيب المؤلفات المناقبية التي ظهرت في دولة الأدارسة بالمغرب 172ﻫ/ 788م وتعرضت لمناقب آل البيت ونسب الأدارسة وتأسيس دولتهم ، رغم أنها كتبت لتحقيق المشروعية؛ ومن أبرزها كتاب " السفرة " لأبي طالب بن أحمد بن عيسى حفيد الإمام إدريس الثاني وكتاب " تاريخ الادارسة " للفقيه محمد بن عبد الملك بن الودون، وهي مخطوطات لا تزال في حكم المفقود.

ضف إلى ذلك جهود الفقهاء الأباضية في تدوين سير وتراجم رجال مذهبهم ومن بينها في القرن 3 ﻫ / 9 م كتابات المؤرخ الأباضي ابن سلام اللواتـي ت 3 ﻫ / 9 م ومسائل نفوسة للإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ت 208 ﻫ / 823 م وكتاب الجوابات لابن الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، كما صنف فتى المديوني وعبد القاهر بن خلق (القرن 3 ﻫ / 9 م)كتابه أجوبة علماء فزان وكلها تدور حول المذهب ورجاله وتاريخه في المغرب ويغلب عليها الطابع المناقبي التمجيدي والمسحة السجالية الحوارية المغلفة بالأسطورة. ويظهر كذلك في القرن 3 هـ / 9 م كتابات الفقهاء المالكية الذين ألفوا في الحصون والرباطات ويبرز في هذا المضمار كتاب " أحميـة الحصون " ليحي بن عمرة ت 289 ﻫ / 901 م وكتاب " الأحميـة وما يجب على أهل الحصون أن يعلموا به " لأبي الفضل بن يوسف بن مسرور ت 210 ﻫ / 825 م. ولا شك أن هذه الكتابات تناولت مناقب أهل الربط وفضائلهم وينبع اهتمام المالكية بهذا الجانب من ضرورة الجهاد الذي كانوا يحرصون عليه في البحر المتوسط.

أما في القرن 4 ﻫ / 10 م فإن ظروف الصراع المحموم بين الشيعة الإسماعيلية والمالكية جعل السباق على أشده بين فقهاء المذهبين وتجلى في تركيز فقهاء المذهب الشيعي الإسماعيلي على الكتابة في سير الفواطم وقوادهم ورجال دولتهم، واهتمام المالكية مقابل ذلك بالكتابة في سير أعلام مذهبهم فكتب أبو العرب محمد، ت 333 ﻫ / 944 م كتابه " طبقات علماء افريقية وتونس"، وأنجز المالكي أبو عبد الله محمد (ت 483 ﻫ / 1090 م) كتابه " رياض النفوس في طبقات علماء افريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم " معتمدا في ذلك على المخطوطات التي الفت قبلهم، وهي ضائعة خاصة كتابه " طبقات العلماء " لمحمد بن سحنون ت 256 ﻫ / 869 م و تجدر الإشارة إلى أن أصحاب كتب الطبقات كانوا فقهاء ومحدثين تأثروا في كتاباتهم التاريخية والتراجمية والطبقات بمنهج الحديث والفقه فاستخدموا الأسانيد والتزموا بالنص ولم يعولوا على القياس إلا نادرا واعتمدوا في مرجعيتهم على رواية المحافظين من أهل الحديث، وعلى الرواية الشفوية المختزنة في الذاكرة الشعبية، لذا جاءت نصوصهم حاملة خصائص السرد القصصي المغلفة بالمآثر والمناقب فنبذوا فيها كل ما لا يتلاءم مع العقيدةواضعين حدا لتضخيم الأسطورة، على حد قول محمد مفتاح. وبذلك أصبحت كتب الطبقات المصدر الأساس لكرامات وأخبار الصوفية، ومصدر إلهام المغاربة الذين أخذوا ينسجون على ضوءها روايات بمواضيع جديدة.

وقد وصلت الرواية الشفوية باللغة العربية والبربرية عن رجال التصوف ذروتها في القرن 6 ﻫ / 12م وأصبحت مواضيعها ثقافـة شعبية، فرضت وجودها في إطار ما يمكن أن نسميه بالثقافة العلمية. ولا غرابة أن نعثر في ثنايا كتب الطبقات والتراجم المغربية على حكايات كانت النساء مصادرها الروائيـة، بل إن اللغة البربرية فرضت وجودها على لسان الصوفية والصلحاء المترجم لهم ويظهر ذلك بشكل جلي في كتاب " التشوف إلى رجال التصوف" للتادلـي 627 ﻫوالمقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف للباديسي.

فأخذ المهتمون هذه الحكايات من كتب الطبقات والتراجم وطوروها بأداة اللغة العربية التي بلغت أوج انتشارها في المغرب الإسلامي حلال القرن 6 ﻫ / 12م وأضافوا إليها تقاليد الثقافة الإسلامية ووضعوها في كتب خاصة اتخذت لشكلها وجنسها هوية، عرفت بالمخطوطات المناقبية أو كتب المناقب التي كرست هي الأخرى مبادئ الاعتماد على حكايات النساء واستعمال اللغة البربرية والألفاظ الدارجةويأتي ظهورها كجنس مستقل عن الأنواع الأدبية الأخرى في سياق موجة ثقافية وسياسية واجتماعية سادت المغرب برمته تمثلت في :

أولا: الانتشار الواسع لحركة التصوف خصوصا بالمدن وانتزاع الصوفية الاعتراف الرسمي من دوائر السلطة والفقهاء الذين كانوا يتابعون باهتمام قضية المتصوفة المنشغلين بكسب الأتباع.

ثانيا: ينبع الحرص الشخصي للسالكين من فقهاء المدن لكتابة مناقب الأولياء من رغبتهم في إعادة إنتاج أنموذج ولائي أسمى يكون مثلا يحتذى به لدى المريدين الذين هم في أمس الحاجة إلى معرفة مناقب شيخهم وفضائله وسيرته وإنتاجه المعرفي.

لذا عرفت حركـة التأليف في مناقب الأولياء نمو متسارعا بعد سقوط دولة الموحدين نتيجة التحول السياسي والمذهبـي والاجتماعي الذي شهده المغرب الإسلامي وعجز القوة الصاعدة الحفصييـن والزيانييـن والمرينييـن عن إقرار الأمن أمام نشاط الأعراب واللصوص والقراصنـة والكوارث الطبيعية ، فسـاد الخوف في المجتمع المغربي الذي أخذ يتطلع إلى الخـارق المتمثل في الصوفي المنتج للكرامة ليخلصهم، "فالخارق ميثاق بين الصوفـي وأتباعـه ولحمة تضامنهم"ومنه يستمدون مادة روايتهم المناقبية، لذا فإن تاريـخ المناقب هو تاريخ الخوف .

**آليات المخطوطات المناقبية وأهميتها في كتابة التاريخ المغربي:**

يشكل الحديث عن العلاقة بين المخطوطات المناقبية والعلوم الأخرى في حد ذاته محاولة منا لعقلنة نصوصها المتأرجحة بين التاريخ والأسطورة والواقع والممكن، من منظور أن هذا المخطوط المناقبي كجنس، ظل منذ نشأته ثم تطوره في تواصل مستمر بالأنواع الأدبية الأخرى التي استعار منها الشكل والمنطق والآلية.

**آلية الأدب:**

استعارت الكتابة المناقبية من الأدب بنيته النصية، والمحددة في الغالب من المقدمة والمتن والصياغة الجمالية والبلاغة والخاتمة.

ففي المقدمة يتجه أصحاب المخطوطات المناقبيـة للبوح بدوافع تأليفهم، وهي متنوعـة بين الرغبة في نيل الثواب والدخول في حمى الولي أو تأكيد الانتماء لهذا الشيخ أو لتلك الطريقة. ويمكن رصد ذلك في عـدد من المخطوطات المناقبيـة مثل الأسرار الجليـة في المناقب الدهمانيـة، لعبد الرحمن بن محمد الدباغومناقب أبي سعيد خلف بن يحي الباجي لأبي الحسن علي بن أبي قاسم الهـواريومناقب سالم التباسي لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الصباغ ،وتحفة العاشقين في ذكر الأولياء الصالحين لمحمد بن عرفة الشاذلي.

ومنهم من خصصها لذكر مناقب أسرته مثل ابن مرروق الخطيب (ت 781 ﻫ/1379م) في مخطوطه المجموع الذي يقول في مقدمته "ورأيت بحول الله أن أصل بذكر الجد رحمه الله ومن عاصره وعاشره من صلحاء وعلماء زمانه على سبيل الاختصار وكذلك لمولاي الوالد، رحمة الله ذكرا، لأن معرفة المواليد والوفيات وتعيش الأشياخ وغير ذلك مما يجب ذكره..".

بينما جعل أبو عمران موسى المازوني (ت 833 ﻫ / 1478 م) مقدمة مخطوطه " صلحاء وادي الشلف " تسجيلا لخصال صوفية وادي الشلف؛ فأحاطهم بهالة من القداسة وشدد على المنتقدين لأحوالهم يقول : >> فالواجب على كل متدين أن لا يعترض لأهل الطريق في طريقهم بل يسلم لهم ولا ينازعهم ولا ينكر أحوالهم ...إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فهم في نهارهم على بلغ الأقوات يفطرون وفي الليل بالحنين إلى ربهم يجترون وجباههم بالسجود لجلال وجهه يعترثون وبتلاوة كتابه يجتهدون ولحلاوة مناجاته يتلذذون ... ".

أما المتن فيضم البعد الحكائي الذي يتخذ شكل الرواية النثرية أو التراجم الطويلة أو القصيرة، تتناول الولي من حيث أصله ونشأته ورحلاته وكراماته، وكذا الإطار الذي ظهر فيه نشاطه.

وفي أثناء ذلك يتم الاستشهاد بالشعر والحكايات والأمثال القادرة على تحريك النفوس والتأثير في القلوب وتهيج المواجد.

كما يستندون إلى الأحاديث النبوية لإثبات الحجة على ما يقومون به دون محاولة تحري صحتها، لذا أتت المخطوطات المناقبية عامرة بقصص الأنبياء والأحاديث التي تتعلق بالرقائق وفضايل الصحابة، وكذلك الأسانيد الخيالية التي تحث على التوبة والحب الإلهي.

أما الخاتمة فتأتي عادة في شكل أدعية يختم بها صاحب المخطوط المناقبي مخطوطه راجيا من الله الأجر والثواب، ومن الولي الذي كتب عنه السلامة والرعاية في الدنيا ببركاته الفياضة. ومثال ذلك ما ذكره ابن مرزوق في خاتمة مخطوطه المجموع >> ولله الحمد ما أنا بصدده والله المحمود على كل حال ، ومنه أسأل جل وعلا أن يعظم الأجر ويجزل الذخر ويمن بالخلاص وأن يجرى ما عود منه الفرج القريب والسلامة وكف الأيدي العاديـة ... وخاتمة الخير الانقطاع الى عز وجل في بقية العمر ودوام الصون والستر والانتقال إلى حرم الله وحرم الرسول (ص) والوفاة بأحدهما ".

**آلية الحديث :**

لطرد الشك من الرواية المناقبية لجأ مؤلفوا المخطوطات المناقبية إلى الاستعانة بعلم الحديث فأخذوا منه آلية الأسانيد وضبطوا سلسلات السند التي تنتهي بالولي إلى الرسول(ص)، لأن الولايـة إذا غاب اتصالها بسند الرسول انعدم وجودها، وبالتالي فإن ارتباطهم بالرسول من خلال السند منطق اقتضته الضرورة وبعد الرسول (ص) يأتي الصحابة الذين يعتبرون من النماذج المثالية ثم يظهر بعدهم في مسلسل السند النماذج الصوفية ذات الأصل المشرقي خصوصا الحسن البصري ، والجنيد وسرى السقطي وأبي الفيض ذي النون المصري ومعروف الكرخي وعبد القادر الجيلاني وأبي حامد الغزالي .

**آلية التاريخ:**

يستدل المشيعون لاستثناء التاريخ من ثنايا نصوص المخطوطات المناقبية بحجة أن التقويم الزمني فيها لا يظهر إلا بشكل استثنائي أو في صورة التعويم مثل : عام القحط، عام الجراد، عام الطاعون، فلأن كتب ومخطوطات التاريخ والتراجم التي " تحتفي بالزمن كعنصر عضوي ومحوري فيها "، كما تغيب فيها أسماء الحكام والأمراء والملوك، فلا تظهر السلطة إلا من خلال الألم الذي تسببه. وقد أجاد أصحاب المخطوطات المناقبية تصوير ظلالها المظلمة في علاقاتها بالصوفية والعامة. وينطبق الأمر ذاته على أسماء القبائل، فهي مغيبة أيضا سواء كانت بربرية أو عربية ولا يذكر منها إلا التي نبغ فيها أولياء وصوفية.

كما أن هؤلاء رفضوا عقلنة هذا النوع الأدبي الذي يغلب فيه المخيال والأسطورة ويبدأ بالكرامة وينتهي إليها.

في حين تحمل التيار الثاني مشقة مهمة الإصرار على إبراز آلية التاريخ في النص المناقبي وطرق الاستفادة منه، فأقروا بالحدث التاريخي الخفي داخل النص والمغلف بترسبات الإبداع الخيالي المتراكم، واظهروا طرق استخراجه، وينطلق مدخلهم إلى ذلك من اتساع مجال النص المناقبي، الذي يسمح بتعدد حظوظ السير والتناول فيه، وبالتالي فإن قراءة أي نص مناقبي هو قراءة لعدة متون، يعتمد فيها على مبدأ التأويل، فكل ترجمة من التراجم المناقبية قابلة لتستخرج منها دلالات باطنية، يراعي فيها كبح جماح القراءة التأويلية كأن يكون للدلالة التاريخية المستنبطة سندها في الحدث التاريخي الواقع فعلا، والمثبت في المصادر المتنوعة بالمصطلح الصوفي والمصطلحات المتداولة والترتيب الزمني للأحداث ومعانيها، حتى لا يكون النص المناقبي مجالا يكيف للتعبير فيه عن أفكار قبلية أو إسقاط أفكار يراد منها تبرير موقف أو حدث تاريخي معين، فيسقط المؤرخ في فخ التحريف ويحمل النص ما لا يتحمل، كما أن في متن النص المناقبي عناصر دالة على الحدث التاريخي فهي تخبرنا بصورة مباشرة وغير مباشرة عن مؤلف المخطوط ومهنته ومذهبه والظروف العامة التي أنتج فيها هذا الخطاب، وكذلك في حديثه عن الولي صاحب المناقب وشيوخه وتلامذتـه ومعارضيه ومجاله وشهرته ونفوذه، والأدوات التي يصارع بها لتحقيق غايـة الجماعة، فضلا عن المواد المحسوسة الموظفة في بناء المثال المناقبي.

وتشكل الكرامة الصوفية أحد أعمدة النص المناقبي وتعكس شخصيته برمزيتها في التعبير عن مكبوتات المجتمع، فهي مادة دسمة لمعرفة مشاكل المجتمع وآماله وتعكس معظم المواجهات بين الصوفية والحكام، والصوفية والفقهاء، وبالتالي فهي نطاق مهم في الوقوف على طبيعة هذه العلاقات، كما أن في ثناياها أيضا دور تحكيمي يضطلع به الولي إزاء الصراعات القبلية ويعد ذلك جزءا من تاريخ القبائل.

هذا فضلا عن حضور المجال الجغرافي بقوة في النص المناقبي، مما يوفر مادة مهمة من جغرافيا المقدس؛ من تاريخ المساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس والربط والقبور، وهو مصدر أثري مهم عن معمار المدن وشوارعها ودروبها وأزقتها وأسواقها ومظاهر التقسيم العمراني فيا وكل ذلك يقود إلى معرفة حياة الناس وحرفهم وترصد مظاهر الحياة بالبادية وعلاقاتها الاقتصادية بالمدينة وهواجس الناس ومعاناتهم فيها تحت طائلة المكوس والأعشار والوظائف التي تفرضها السلطة وترسم حياة الخوف من خطر اللصوص والأعراب والفقر .

وتظهر الرواية المناقبية، رواية تاريخية من خلال الأهداف التي يروم صاحب المخطوط المناقبي تحقيقها شانه في ذلك شأن ذاتية المؤرخ في النص التاريخي لكنه قد يصرح بها أو قد تبقى دفينة الكلمات. غير أن الأجدر معرفتها لأن في ذلك معرفة للمتكلم أي صاحب المخطوط وبالتالي النفوذ من خلال ذلك إلى فهم أعماق النص وتوجهاته الدينية الصوفية والاجتماعية، ثم أن رغبة الباحث الرامية إلى إعادة إحياء النص المناقبي، كما يراها، تجعله يصطدم بثوابت وأهداف صاحب المخطوط المتجذرة في بطون الكلمات وهذا في حد ذاته مهم لمعرفة أهمية النص المناقبي ووظيفته في المجتمع .

ويتجذر التاريخ أكثر في الرواية المناقبية عندما يكثر فيها الاستدلال برواية المؤرخين، فتتأكد صحتها وتصير غير قابلة للطعن فيها خصوصا وأن أصحابها عملوا على تقوية سندها باستخدام تعابير حدثنا أو سمعت أو قال لي : فقد اعتمد ابن مرزوق الخطيب مثلا في مخطوطه "المجموع" على المؤرخ الصوفي أبي العباس أحمد بن إبراهيم المعروف بابن القطان التلمساني في خمس وثلاثين رواية ، وسلك منهج التحري والدقة في اختيار مصادر الرواية الصحيحة كما يظهر من قوله : >> وأما بعد ابن مرزوق فلم أتلق من والدي ولا من عمي رحمه الله وإنما وقفت على شيء منه بظهر كتاب لم أنقله لعدم الوثوق بـه << كما لا يكتفي بالروايـة الشفوية بل يقابلها بالوثائق والرسوم التي كان يعثر عليها لتأكيد صحة الخبر يقـول: >> ورأيت بخطط في رسوم قديمة بالفقيه الأمين وفي بعضها بالأمين الصالح وأشك في حجه، ..<<.

ناهيك على أخذه بالمتعارف عليه والشائع من الأخبار والأقوال يقول:>>أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة وهي من القضايا المتواترة المعروفة عند قدماء أهل تلمسان <<. وفي أنموذج آخر أخبرني شيخنا ابن القطان والمؤرخ الثقة أبو محمد عبد الله الشريشي والشيخ المعظم أبو محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن بن زيان المعروف بابن أبي حفص حفيد السلطان، وسمعت من الشيخ المعظم كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم أبا سليمان داود بن علي <<.

ناهيك عن أن قسما كبير من أصحاب المخطوطات المناقبية هم قضاة وفقهاء تكتسي مخطوطاتهم أهمية علمية وتاريخية لأنهم أسقطوا آلية القضاء ومنهج الفقه والحديث على النصوص بدقة وحصافة وبعد نظر وتخمين، ووفقوا في جعل النص المناقبي ماض يغيب فيه الراوي للحكاية فيتحول إلى خطاب يسرد نفسه بنفسه تماما كما هو النص التاريخي، فيطمئن القارئ وينساق متقبلا النص المناقبي كخطاب تاريخي.

**أهميتها الوظيفية ومسؤوليتها الحضارية :**

يقر كل باحث متعامل مع المخطوطات المناقبية أنها ليست مجرد مستودع يخزن الظاهرة الصوفية ويحفظ تاريخها أو أنها مقعدة بحكم الزمان والمكان التي ألفت فيه، بل هي >> كيان فاعل متفاعل كغيره من الإبداعات النصية الأخرى << على أكثر من صعيد، فقد ألفت وفق أهداف دقيقة توخى أصحابها بلوغها، شحنوها بطاقة روحية ، وما تركيزهم على شخصية الولي ومجاهداته وخوارقه وكراماته وقدراته في تجسيد الحلول للمشاكل التي تعترض المجتمع وتفوق على القوى الأخرى السلطة والفقهاء واللصوص والأعراب الأباعد هدفوا من خلاله تحقيق عامل "الإجماع الشعبي للولي " وهي غاية كان ينشدها الأولياء على اختلاف الأزمنة والثقافات؟

كما أن الجوانب الميثية " Mythiques " التي تحلى بها الولي تكرر ذكرها وصارت نموذجا سلوكيا يقتدي به المريدون والأتباع، قصدوا بها تكوين الإنسان الكامل أخلاقيا. كما تظهر أهداف المخطوطات المناقبية عميقة في إحاطة مؤسسة الزاوية بهالة قدسية لضمان استمراريتها ودفع الشكوك عن شيوخها وتبرير مواقفهم وترسيخ اعتقاد الأتباع، وضمان ارتباطهم الدائم بالزاوية، مما يسمح لورثة الولي بالمحافظة على هيبتها ورأسمالها الكريسماتي. ويعد مخطوط " المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ محمد الصالح " الذي ألفه حفيده أحمد ابن إبراهيم بن أحمد بن أبى محمد صالح في القرن 8 ﻫ / 14 م خير مثال لما طرحناه آنفا، فقد تتبع فيه كرامات جده أبى محمد صالح ودوره على مدار القرون السادس والسابع والثامن الهجري.

وقد أصبحت هذه الظاهرة مطروحة بشكل لافت للانتباه في المخطوطات المناقبية التي ألفت بعد القرن 7 ﻫ /13م بسبب المفارقة الكامنة في ذات الولي الذي أخذت قناعته الصوفية في التآكل متجها في ذات الوقت الى الاهتمام بالدنيا وزينتها .

ولا غرابة أن تعكس هذه المصنفات وظيفة سيكولوجية بتفريغها للمجتمع من مشاعر الانتقام والحقد تجاه القوة التي تشكل مصدر الألم والمعاناة، وهي السلطة والأعراب واللصوص وجشع المتفقهين. وتبني الولي لهذه المشاعر التي يصبح معبأ بها، تدفعه إلى الرد على عنف هؤلاء بعتف مماثل، وهو في حد ذاته انتقام للمجتمع المتضرر بواسطة أداة الكرامة لذا جاءت أغلب الكرامات انتقامية.

وإذا كانت المخطوطات المناقبية قد وفقت في القرون الأولى ابتداء من القرن الثالث الى نهاية القرن السابع الهجري في رسم سمات الشخصية الصوفية المغربية لتكون مثالا يحتذى به، فإنها تتحمل بعد ذلك، خصوصا في القرنيين 8 – 9 الهجريين/ 14 – 15 الميلاديين نصيبا ما في انحدار الذهنية المغربية نحو الخرافة وانحطاط الفكر وترهل الثقافة، وذلك عندما ركزت على تحقيق وظيفة الإجماع الشعبي حول الولي، وهي ظاهرة لا تعكس التناغم بين المضامين الزهدية وظاهرة التدين الشعبي. ذلك أن اقتصار الطلبة والمريدين والأتباع على قراءتها ومطالعتها أضعف ارتباطهم بمصادر التصوف الإسلامي النظيف ممثلا في القرآن والسنة وأخلاق السلف الصالح والمصنفات الصوفية الذائعة الصيت كالإحياء والرعاية وقوت القلوب والإشارات وغيرها.

ولما اتجه هذا الخطاب المناقبي إلى تأصيل فكرة الاعتقاد المطلق في الأولياء والترويح للكرامة والخارق بغرض إبهار الأتباع والمعتقدين ومحاولة إقناع الرافضين والمنتقدين، سقط فكر الإنسان المغربي في شراك الأدب المناقبي وسلم بخطابه وصار يخشاه بل ويستأنس به في ظل عدم قدرته على الاستجابة للتحديات الجديدة التي كان الإنسان الأوربي في الضفة الأخرى يراهن على تحقيقها في إطار نهضته الحديثة .

ورغم أن نخبة من الفقهاء والمفكرين في الغرب الإسلامي بذلت من خلال مؤلفاتها جهدا في مقاومة هذا النوع الأدبي من البدع ، وأخص بالذكر محاولات أبى عبد الله محمد بن الحاج العبدري (ت737 ﻫ / 1336م) في كتابه >> المدخل في تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها << وكتاب >> روضة التعريف بالحب الشريف << لابن الخطيب وكتاب >> الموافقات << للشاطبي (ت 790 ﻫ /1388م) و>> وشفاء السائل لتهذيب المسائل << لابن خلدون (ت808ﻫ/ 1405م) وكتاب >> هداية من تولى غير الرب المولى << لأبي حفص عمر بن موسى بن محمد الركراكي (توفي 810ﻫ/ 1407م) ووصايا ابن القنفذ القسنطيني ( ت 810ﻫ/ 1407م) الإصلاحية التي ختم بها كتابه >> أنس الفقير وعز الحقير << فإن هذه الأعمال أصيبت بالانكسار، فقد اكتسحتهم لهجة التدين الشعبي المشدود إلى الأسفل بجاذبية أجاد الأولياء وأصحاب المخطوطات المناقبية حياكتها والتأثير بواسطتها على عقول المغاربة وأفئدتهم .

**قائمة المراجع:**

ألفرد بال: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ط3، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،1987 .

لطفي عيسى:أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ، دار سراس للنشر، تونس1993 .

الهادي روجي ادريس: الدولة الصنهاجية في عهد بن زيرى من القرن 10م الى 12م ،ج1 ،ترجمة حمادي الساحلي ، الطبعة الأولى ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،1912 .

روبار برنشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13م الى نهاية القرن 15م ،ج1 ترجمة حمادي الساحلى ط1 ،دار العرب الإسلامي ، بيروت ،1988.

أحمد التوفيق : تاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى، الملتقى الدراسي، الرباط 8 – 9 أفريل 1988 ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مطبعة عكاظ ، 1989 .

محمد المنصور : تصوف الشرفاء الممارسة الدينية والاجتماعية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها الملتقى الدراسي ، الرباط 8 – 9 افريل 1988 ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مطبعة عكاظ ، الرباط 1989.

عبد اللطيف الشاذلي: المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من خلال الآداب الصوفية أطروحة، دكتوراه دولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1407ﻫ /1987 م.

محمد مفتاح: التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8 ﻫ / 14 م، القسم الأول أطروحة دكتوراه دولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1980 – 1981.

محمد مفتاح: الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية، الملتقى الدراسي، الرباط 8 – 9 افريل 1988، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة عكاظ، 1989.

محمود إسماعيل:الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، بدون تاريخ، ص 25، 26

الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 12 و13 الميلاديين، ط 1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة الجزائر ، 2004 .

سلامة العامري: الولاية والمجتمع، منشورات كلية الآداب جامعة منوبة، تونس، 2001.

الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، دار خيال، ط3، 2022.